قراءة في كتاب " صدمة الحداثة " " لأدونيس"

الأستاذة : مليكة ضاوي
قسم الأدب العربي
جامعة الحاج لخضرباتنة - الجزائر-

ملخـــص:

شهد الشعر العربي في السابق انعطافا كبيرا عصف ببنيته التقليدية، فكان أن انفجرت تلك البنية انفجارا هز كيانه ولنعلم أن هذا التحول الذي يعتبره الكثيرون من قبيل الصدفة إنما له أسبابه ودوافعه المنطقية ويعتبر " أدونيس " أكثر النقاد العرب اهتماما بهذه القضية فقد أثبت في " صدمة الحداثة " أن الشعر قد احتضن جميع تلك الإشكالات ليصبح مستقر ذلك الصراع فتأتي تحولاته تعبيرا عنيفا عن تلك الهزات الثقافية وصولا للقصيدة الحداثية أو الحداثة عموما .

Résumé :

La poésie arabe a connu un bouleversement dans sa structure traditionnelle. Contrairement à ce que pensent beaucoup de gens, cette transformation structurale est la résultante d'une somme de facteurs qu'Adonis avait développés dans son œuvre « le choc de la modernité ». En effet, cet auteur affirme que la poésie a été profondément marquée par différents conflits, et par conséquent la traduit dans la remise en question de sa structure.

الشعر هو أقدر الظواهر الفنية والثقافية، على التطور والتغير، وهو في معظم المجتمعات، صوت الحداثة والتقدم، والمعيار النفسي على عافية هذه المجتمعات واختلالها دون أن يعني هذا إغفال أو إنكار دور الانعكاس في نظرية الأدب، وإنما هو تأكيد على الدور الفعال للرؤيا الشعرية وتفسير للملاحظة القائلة "إن الحداثة الشعرية في المجتمع العربي تكاد تصارع في بعض وجوهها الحداثة الشعرية الغربية".

رغم أن التطور والتحول من قوانين الحياة وسننها إلا أن الكثيرين رفضوا هذه القوانين والسنن عندما ظهرت القصيدة الجديدة في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، وكسرت قانون الجمود والثبات الشعريين وكانت إيذانا صريحا بسقوط الثبات الشعري، ومن الواضح أن الأنواع الأدبية الجديدة كالمسرح والرواية والقصة لم يكن لها وجود فعلي سابق في الموروث العربي فيشكل ذلك الوجود السابق عائقاً بالنسبة لتطوير هذه الأنواع الأدبية، لكن الشعر الذي يملك موروثا ضخما وحضورا أساسيا في الذاكرة العربية يجعل أدنى محاولة للخروج عن قواعده المألوفة مثار غضب ومجال قلق، مما استدعى جهاد بعض رجالات النقد أمثال – أدونيس – الذي حمل على عاتقه مسؤولية النهوض بالقصيدة العربية الحديثة وتطويرها، إذ كانت له اليد الطولى في ترسيخ مفاهيم النقاد المحدثين حول التراث والحداثة والتعامل معها.

ونظرا للأهمية الكبيرة لهذا التوجه النقدي، فقد ارتأينا تحقيقا للمنفعة العامة أن نعرض لهذا المشروع الحداثي لهذا الشاعر والمنظر الذي قيل عنه "إنه حجر رمي في المياه الراكدة لحياتنا الثقافية والمعاصرة ".

وعليه سنشتغل على كتابه (صدمة الحداثة) وهو الجزء الأخير من كتابه الثابت والتحول، بحث في الإتباع والإبداع عند العرب (الأصول – تأصيل الأصول– صدمة الحداثة)، وهو مشروع بحث نال به درجة دكتوراه دولة سنة 1973 بالجامعة اليسوعية "القديس يوسف" ببيروت تحت إشراف الدكتور (بولس يوبا اليسوعي)، ولعله من المفيد

أن نورد في هذا المقام نص تعليقه الذي يعتبر خلاصة تقييمه لهذا المشروع الذي يبدو انه اقتنع به كليا:

"... وحللت العلاقة بين الثابت والمتحول في الشعر تحليلا دقيقا، وبينت لماذا تغلب الثابت عن المتحول أي أن فكرة وجود شعر مثالي كامل برزت في العالم العربي، وكيف أن هذا الشعر المثالي الكامل أصبح الشعر القديم أي الشعر الجاهلي وما سيقترب منه في الزمن، وكيف أن كل ابتعاد عن هذا المثال السابق الكامل أعتبر سقوطا وابتعادا عن الكمال".

وقد أورد " أدونيس" أسباب تأليفه لهذا الكاتب بأجزائه الثلاثة في قوله "ان ما وجه البحث حدس أولي لم يلبث أن تأكد في جدلية القبول والرفض وهي الجدلية الأكثر طبيعية وواقعية في الحياة العامة ".

ويذكر " أدونيس" أيضا أن ما وجه بحثه منذ البدء إضافة إلى ما ذكره الحرص الشديد على التسلح بالتراث في دارسة هذا التراث ذاته وترك النصوص تتكلم عن ذاتها، وتقليل الاعتماد على المستشرقين*.

لذلك سوف نركز على هذه الثنائية الضدية (الثابت / المتحول) التي بنى عليها كتابه المذكور الذي دار حوله كلام كثير من نقاد الشعر الحديث والمعاصر من عرب وغرب، وشكلت سؤالا محوريا في مؤلف "صدمة الحداثة" الذي صدره بالمقدمة التالية: "لقد آثرت في هذا الكتاب من الثابت والمتحول أن افرد للشعر جزءا خاصا وأن أتناول الفكرة والثقافة بشكل عام، في جزء خاص لاحقا، وآثرت أن لا ادرس إلا الظواهر الشعرية التي رأيت أنها تفيدنا في إضاءة ما اذهب إليه في مسألة الحداثة الشعرية، وألا اعرض من الظواهر النقدية والأدبية والفكرية العامة إلا ما رأيت انه يرتبط ارتباطا وثيقا بهذه المسألة".

لقد جاء هذا الكتاب النقدي والتنظيري، "صدمة الحداثة" في حوالي ثلاثمائة وثلاث عشر(313) صفحة مقسمة إلى ستة عشر قسما جاعلا كل قسم مستقل بذاته – سوف نأتي عليها بعد أن نقف عند ثنائية (الثبات / المتحول) لما لها من حضور قوي في أقسام هذا الكتاب وتنظيرا ته.

وعليه فالتحول: هو الانتقال من حال إلى حال انطلاقا من هذه الماهية الواضحة والمختصرة نستطيع أن نقول ارتجالا: الثبات ضد التحول فهو قار لا ينتقل من حال إلى حال، فيصبح الإتباع هو الثابت أي الشعر القديم الجاهلي، والإبداع هو المتحول أي الشعر العباسي وما بعده استنادا لرأي الدكتور "محمد بنيس" الذي يقول: "يميز أدونيس في أطروحته الجامعية في الثابت والمتحول، كما في تنظيراته اللاحقة بين الشعر الجاهلي والشعر العباسي، باستعمال مصطلحين صريحين هما الثابت والمتحول ثم الخطابة والكتابة ". ويرى " أدونيس " أنها قضية على أهمية كبيرة لا بد للناقد والشاعر المعاصرين من مناقشتها "إن القضية الأساسية في دراسة الثقافة العربية وفي التراث العربي بعامة هي في فهم العلاقة بين رؤيا الثبات ورؤيا التحول، أو طبيعة الصراع بين منحنى الإتباع ومنحى الابتداع ".

لقد حاول " أدونيس" أن يخلق ثقافة جديدة تأخذ بأسباب التحول كي تضمن التواصل والاستمرارية، لاسيما وأنه أتى على الأخضر واليابس من التراث العربي كالديني واللغوي والأدبي، وراح يصنف المتحول منه ويبين الثابت ومواضعه تبعا لأحقية، كل منهما فيقول: "... وقد عاينت الثابت وبينت أحقيته على ماضٍ يفسره تفسيرا خاصا معينا أو ينفي كل من لا يقول قوله، وعنيت بالمتحول ما يرفض أحقية هذا الثابت استنادا إلى تفسير خاص معين لذلك الماضي عينه عاملا بواقعيته كونه خارج السلطة على تحويل المجتمع في اتجاه ما يهدف إليه".

وسنوضح كل هذا في خطين متوازيين الأول خاص بالثابت والثاني خاص بالمتحول:

الثابت: أحقية (تملك – سلطوية)=(تفسير خاص لما سبق) نفي الرأي المعارض

المتحول: رفض الأحقية (معارضة – نقد) = (تحرير اللاسلطوية) = تفسير واقعي حركية حداثة وفيما يلي التعليق الكتابي لهذين الخطين المتوازيين:

1/ الثابت : يسعى أن يبقى وفيا للحالة أو الأحقية التي وجد عليها الشيء، أو هي معطى سلطوي مفروض يعمل على تفسير الماضي السابق، وبالتالي يكون امتدادا مفروضا أيضا

يحمل تفسيرا لضرورة الثبات في الزمن المغلق كيفيا ليتيح حق نفي أو رفض الرأي المعارض والذي هو (المتحول).

2/ المتحول: رفض نوعي لأحقية الثابت وتحرر من القيود الاجتماعية ونفي لأحقية الثابت في التملك للتفسير الأحادي (الأنموذج المتبع) في شبه معارضة نوعية ونقد واضح للتفسير السابق.

فالدين والشعر الجاهلي لا يزالان الطريقة التي يفكر بها المجتمع العربي وبناء على هذا الرأي الادونيسي يصبح المجتمع العربي مجتمعاً تأسس برؤيا دينية، تشمل كل مناحي الحياة.

أما عن مسألة التراث التي وردت في كل كتاباته تقريبا ولم تنفرد بها"صدمة الحداثة" فقط، فلا تدرس من زاوية الرفض أو القبول فحسب، بل من زاوية فهم هذه الصلة التي غالبا ما استحوذت على اهتمام " أدونيس" وهي المسألة التي تطرح بدورها قضية الثابت والمتحول في هذا التراث، فما الثابت فيه، وكيف نحدده؟ وما المتحول؟ وكيف نميزه؟ ان موازنة " أدونيس" بين الثابت والمتحول هي الموازنة بين ماهية الشعر الحداثي (الجديد) وماهية الشعر القديم، ومن خلال هذه الموازنة تتضح " المحاولات التأسيسية لمشروع الرؤيا الشعرية فالشعر القديم يأخذ في كتاباته النظرية عدة أسماء " التنميط " و" الكتابة المحافظة " و" القصيدة المغلقة" وفي مقابل ذلك نلفيه يعطي تسميات متنوعة للشعر الحداثي كـ : " الكتابة التغيير" و" القصيدة المنفتحة".

فما يعتبره " أدونيس" الماضي الذي مازال حيا قد يعتبره الآخرون الماضي الذي قد مات لذلك يرد على الذين اتهموه برفض التراث رفضا تاما بقوله: "أن شاعرا يصرف عشر سنوات في دراسة ماضينا الشعري العربي، ويقومه بنظرة جديدة ويقدمه إلى القارئ بضوء هذه النظرية لا يمكن أن يقال عنه، أنه يرفض الماضي رفضا تاما، أما الذين يصرون على إشاعة هذا القول، فاكتفى بأن أتوجه إليهم برجاء حار هو أن يقرأوا قبل أن يحكموا ".

وهذا ما سنحاول أن نزود أنفسنا به في قراءة أقسام الكتاب – صدمة الحداثة – على الشكل** التالي :

القسم الأول : يضم : من القدم الى الحداثة العرب الغرب.

القسم الثاني : يضم : البارودي أو النهضة الحداثة / معروف الرصافي أو الحداثة الموضوع / جماعة الديوان أو الحداثة الذات/ خليل مطران أو حداثة السليقة / جماعة أبولو أو الحداثة النظرية / جبران خليل جبران أو الحداثة الرؤيا.

القسم الثالث : يضم : الارتداد / التنميط، الارتداد / شكلا نية الإيصال الكلام القديم / الكلام الحديث / الحداثة . التجاوز/ من الخطابة إلى الكتابة/ بيان الكتابة.

القسم الرابع: يضم: صدمة الحداثة:

ففي القسم الأول: يعيد " أدونيس" قراءة التاريخ والأدب والفكر والعلاقة بين العرب والغرب على ضوء الحداثة التي يعرفها كالتالي : "مفهوم الحداثة في الشعر يقوم على الرؤيا الشعرية التي تختلف عن الرؤية البصرية، كما تختلف البصيرة عن العين الباصرة، الأولى تدرك إدراكا به عمق عن طريق الصورة المعقدة والثانية تدرك إدراكا مسطحا عن طريق التشبيهات والصفات ".

ومن هذا المفهوم نسجل موقفه من التراث فهو يتمثل الماضي ويفسره بمقتضى الحاضر ويفتح نافذة على المستقبل، معنى هذا "أن الحداثة في المجتمع العربي بدأت كموقف يتمثل الماضي ويفسره بمقتضى الحاضر ويعني ذلك أن الحداثة بدأت سياسيا بتأسيس الدولة الأموية وبدأت فكريا بحركة التأويل".

ومن هنا كانت الدولة الأموية نقطة التصادم بين العرب والغرب الأمر الذي أدى إلى طرح السؤالات والصراعات الفكرية التالية: الدين، العقلانية، الحداثة الفنية مع (أبي تمام) و(أبي نواس) وقد مثل "أدونيس" الحداثة الفكرية بالصوفية عند " ابن رشد" فقد أعطى لهذه الأخيرة معنى يقترن بالطابع الإنساني المطلق" من هنا تجاوزت الصوفية التجريد أو التعالي، بالمعنى التقليدي الديني وتعتبر تبعا لذلك مفهوم العالم"، وقد جعل الطهطاوي نقطة الالتقاء الأول بين العرب والغرب حيث وفق في الجمع بين الدين والحضارة والدين والعلم .

أما القسم الثاني : فقد تكلم فيه عن رجالات النهضة العربية وتجليات الحداثة عند كل منهم فجاء بنظرة مغايرة لما ألفه النقاد والشعراء العرب ومن "الجدير ذكره أن "أدونيس" قد شغل

نفسه بقراءة التراث العربي أدبيا ودينيا، قراءة ناقدة متفحصة اعتمد فيها على خبراته الثقافية ومطالعاته الذاتية إضافة إلى الأفكار النقدية الغربية التي اطلع عليها من خلال قراءاته للتراث الإنساني العالمي".

إن هذه الآفاق دفعت أدونيس إلى "اعتبار البارودي مقلداً في حين يعده النقاد*** باعث الشعر العربي في عصر النهضة، فهو يتعجب من شاعر يعيش القرن الماضي لكنه يستهل قصيدته بمقدمة طللية أو غزلية لذلك يعد امرئ القيس أكثر حداثة منه لأنه قال زمانه " الجاهلية "في حين عاش البارودي" زمن غيره فهو (مقلد متقن) واعتبر " الرصافي أكثر حداثة منه وأعمق التزاما واشد رؤيا، أما جماعة الديوان : فقد ربطهم بالحداثة الذاتية وقدم شعر " شكري" على شريكيه "العقاد والمازني" فقد اتجه شعره بالتعبير عن الذات والتأمل في العالم، أما "مطران" فيراه قد أحسن في تجاوز شعر النهضة، غير أنه – يستدرك، أن تنظير جماعة الديوان أكثر أهمية من نتاجها الشعري أما "جبران" فقد اعتبره طفرة ثاقبة في مسار الشعر العربي، واعتبره شاعرا رؤيويا، فهو شاعر الهدم والبناء بالإضافة إلى إتيانه على كل الفنون النثرية تقريبا كالقصة القصيرة، والطويلة والمسرح والمقالة والكلمة الجامعة، (المثل، الحكمة) أضف إلى ذلك قصيدة النثر والوزن.

أما " جماعة أبولو" فقط ربط " أدونيس" بينهم وبين الحداثة النظرية، وقد نوه بجهودهم النقدية المتقدمة التي خرجت عن الشكل الشعري الموروث، وعلى ما يبدو أن هذه الجماعة تستحق هذا التبجيل فقد قالوا بالوجدانية والانحياز للطبيعة لا من حيث هي مناظر بل من حيث هي مخزن للأسرار والمجاهل مع شيء من الصوفية والرمزية والفلسفية ثم أن أعظم انجاز لهذه الجماعة ما جاء على لسان "أبو شادي": إنما جاء عن طريق التحرر الفني والطلاقة البيانية، والاعتزاز بالشخصية الأدبية المستقلة والجرأة على الابتداع على التمكن من وسائله لا عن طريق المجاراة للقديم المطروق".

وهذا هو الشكل الخطي لشعر النهضة من جهة الحداثة حسبما جاء في الكتاب:

البارودي ← النهضة / الحداثة
الرصافي ← الحداثة / الموضوع
جماعة الديوان ← الحداثة الذاتية
خليل مطران ← الحداثة / السليقة المعاصرة
حركة ابولو ← الحداثة / النظرية
جبران خليل جبران ← الحداثة / الرؤيا

ج- القسم الثالث : يطرح فيه صاحبه إشكاليتين كلتاهما لها صلة وثيقة بعصر النهضة والقضية الأم التي رافقت أدونيس خلال مسيرته الأدبية بنوعيها الشعرية والنظرية ألا وهي قضية التراث .

نبدأ الآن بالإشكالية الأولى وهي إشكالية الارتداد والتنميط وقبل ذلك نود أن نبين ماهية المصطلحين فنقول: الارتداد مصدر للفعل إرتد أي عاد وارتد رجع لشيء سابق له أما التنميط فهو الآخر مصدر للفعل نمط أي كرر واسترد شيئا سابقا له أيضا، ومن هذا الاجتهاد البسيط لمعنى المصطلحين نجد أنهما يسيران في مسار واحد، فيحملان نفس الدلالة فالتنميط هو الارتداد وكلاهما العودة والرجوع أو لنقل الاستعادة والتكرار وإنما أتى بهما "أدونيس" في سياق أو عنوان واحد متصل لتعود الرجل على الثنائيات ليس إلا والمقصود بهما الشعر القديم، الجاهلي.

إن أهم ما تناوله "أدونيس" في هذا القسم مسألة الثقافة العربية ويبدأ كلامه بالسؤال التالي: ما المشكلة الأدبية السائدة بفعل عصر النهضة؟ فيجيب إنها مشكلة الارتداد والتنميط حيث يصف عصر النهضة بانه عصر تنميط وارتداد للأسئلة التقليدية وأجوبتها وهو عصر لم يطرح - باستثناء جبران - على مستوى الأنظمة الثقافية أي سؤال جديد حول مشكلة الإبداع الفني ومن ثمة لم يعد النظر في الموروث ولم يفهم معنى الحداثة إنه عصر استعادة وتكرار لا عصر إنتاج يكتشف ويضيف .

ثم ينتقل إلى اشكالية التراث حيث يعدها مشكلة فكرية ونظرية وسياسية أيضا وينفي سؤال سائل ,يقول :

ما موقفك من التراث ككل ؟ ويرى أن السؤال الصحيح الأجدر بالطرح هنا :

(ما موقفك مثلا من هذا الفيلسوف أو كيف تحدد علاقتك بذلك الشاعر) .

-أما الجزء الثاني من هذا القسم فجاء معنوناً بـ (الارتداد / شكلانية الإيصال) فيتناول فيه أدونيس بالمناقشة والتحليل الطريقة التي يتواصل بها الشاعر القديم مع الأخر ، ومن ثمة يرى أن العلاقة بين المبدع والمتلقي في التواصل النقدي مدار للجدال منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، فقد ظهرت هذه المسألة منذ ظهور الإسلام، ويقول "أدونيس" مبينا ذلك :

(كان الإسلام دين رؤيا جديدة للكون ونظاما جديدا للحياة أي أنه لم يكن استمرارا للقديم أي الجاهلية العربية ، بل كان انفصالا عنها).

- فقد بلغت هذه الحركة من الاتصال والانفصال أوجها في نهاية القرن الثالث هجري والتاسع الميلادي، في نتاج أبي نواس وأبي تمام، كما نجد إشارات كثيرة لهذه المسالة في الكتب العربية القديمة ف "من الشعراء الذين حاولوا ابتكار أوزان جديدة أبو العتاهية وحين قيل له إنه خرج عن العروض قال " أنا أكبر من العروض "".

- وأوّل من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ... ثم تبعه أبو تمام ... ففسد شعره ".

في ضوء كل هذا ندرك دلالة صراع الألفاظ وقضية الإرتداد أو كما يحلو لأدونيس أن يسميها شكلانية. الإتصال لم تظهر إلا بعد ظهور الإسلام ونقول هذا بتحفظ شديد فهو إذن استعادة للماضي بين قيم الثبات وقيم التحول.

د- القسم الرابع : هذا القسم أهم ما جاء في الكتاب لا سيما فيما يتعلق ببيان الكتابة فهذا المحلل والناقد المغربي "بنيس"، والذي قطع شوطا كبيرا في دراسته لأراء وكتابات أدونيس يرى " إن هذا الجزء من كتاب "الثابت والمتحول" يحمل صياغة موسعة لأرائه في الشعر وحداثته وبيان الكتابة الذي يتضمنه هذا الجزء ذو أهمية في مرحلة الكتابة بجدية.

وما يطرحه من قضايا الخطابة والكلام والكتابة"، لذلك سنركز على القضيتين التاليتين واضعين في حسانا أن قضيتي الحداثة/ التجاوز والكلام القديم/ الكلام الحديث متضمنتان

في القضيتين الأساسيتين بيان الكتابة وصدمة الحداثة.

وسنبدأ الآن بقضية بيان الكتابة حيث يبادرنا أدونيس في هذه المسألة بكلام تقليدي لا طالما حدثتنا عنه كتب اللغة والأدب والبلاغة منذ "أبو هلال العسكري" و"الجرجاني".

حيث يطرح السؤال التالي: لماذا أقرأ ؟: قائلا هذا هو السؤال الذي تفرض الكتابة طرحه مقابل السؤال الذي افترضته الخطابة طرحه ؟ لماذا أسمع ؟.

ليصل به التحليل والتنظير إلى سرد التاريخ الطويل للخطابة منذ ظهورها في الجاهلية مارا بتعريفاتها عند أهم علماء العربية مبينا أهم صفات الخطيب وميزاته وأهميتها، كما يبن دور الخطابة في الحياة العربية فيراها تهدف للاقناع والتأثير ويبين ارتباطها بالدين والسياسة في المجتمع العربي ويحصر أصولها في الإيجاد والأهواء والتنسيق.

فالإيجاد: هو إبتكار المعاني المقنعة وهي تؤخذ من الأداب ويعنون بها الأخلا ق والصفات اللازمة للخطيب والسامع على السواء.

أما الأهواء : فيعنون بها الإنفعالات التي تثير في النفس اللذة أو تنقصها وهي تصدر عن الشهوة والغضب.

وأما التنسيق فهو ترتيب المعاني وربط أجزائها بأحكامها .

يصل أدونيس بعد كل هذا بقرب الخطابة من البلاغة ومن ثم يقدمها على الشعر العمودي الإسلامي الأول لأنه بحاجة كانت تقتضي الدفاع عنه أي عن الدين الجديد بل إن الشعر نفسه كان ينتهج أسلوبا خطابيا لا يعود انتشار الشعر إلى أولويته على الخطابة "وإنما يعود إلى أسباب موضوعية أهمها الأمية وانعدام الكتابة و إن كان ما تستوعبه النفس وتحفظه أكثر مما تستوعب الخطابة وتحفظها".

فلم يعد الموضوع عنصرا أساسيا وإنما أصبح الشاعر يتحدث عن شعره الخاص فقد غلبت الذات عن الموضوع " كان الخليفة في قصيدة "جرير" أو "الفرزدق" مثال كل شيء، لكن أصبح في قصيدة أبي تمام أو أبي نواس أو المتنبي بعدهما وسيلة للشاعر".

وهذه هي الحداثة في مراحلها الأولى حيث أن الشاعر يحدد جوهر الإبداع في ذاته لا في خارجها فهذا التحول حول الكتابة أي نحو تعبير مختلف ولد تحولا نحو ثقافة جديدة وتقويم جديد.

فقد أصبح يطلب من الشاعر أن يبدع عالما جديدا خاصا به كرؤيا جديدة للعالم، فالنص الإبداعي أفق من الدلالات على حد تعبير أدونيس.

صدمة الحداثة : يعتبر هذا القسم أهم أقسام الكتاب لذلك راح أدونيس يحمله عنوان الكتاب ككل، فأول ما يومىء، به هذا العنوان المستفز، تركيبه من الكلمتين:

(صدمة وحداثة) فالحداثة هنا عربية - وأضفنا لها كلمة عربية كتمييز هذه الحداثة عن غيرها حسب مقصد أدونيس في الكتاب- لكن ما معنى أن يضيف المنظر كلمة (صدمة) لا شك أن هناك أبعادا ومراميَ يقصدها أو نتائج توصل إليها وهي مدار هذا الجهد المتواضع بحول الله- غير أننا نود قبل الخوض في التفاصيل أن نشير إلى أن كلمة (صدمة) هذه وجدت لها معاني كثيرة، تناولتها أقلام عديدة، وهي نفسها المعاني القاموسية ككلمة (مأزق) عند غالي شكري، و(مشكلة) عند نبيل سليمان و(أزمة) عند محمد بنيس.

فإذن: يبدأ أدونس كلامه بالمقولة التالية) الإمبريالية التقافية هي مجموعة الوسائل التي تمكن من إدخال مجتمع ما في إطار النظام العالمي الحديث التي تؤدي بالطبقة التي تقود هذا المجتمع إلى أن يكيف مؤسساته الإجتماعية سواء بفعل الإغراء أو الضغط أو القوة أو الفساد لكي يجعلها متطابقة مع القيم والبنى في المركز المهيمن لذلك النظام أو لكي تجعلها وسيطا لها).

ويشرع في شرح عبارته فيبين أن عبارة النظام العالمي الحديث، تشير إلى النظام الأمريكي الأوروبي، أما عبارة المركز المهيمن فتعني الولايات الأمريكية وحدها.

فالموقف العلائقي المتجدد بالغرب الأوربي، ويحدده أدونيس باصطدامه بالحداثة الأوربية، إثر دخول نابليون مصر عام ألف وسبع مائة وثمانية وتسعين غير أن الإمبريالية الثقافية تخلخلت جذريا في المجتمع وقذفت به الى مفترق حاسم فبدا ملحقا ثقافيا بالغرب الأوروبي، ففي حين كنا نتناول الغرب قديما ممثلا باليونان، فإن الغرب اليوم يقيم في عمق أعماقنا فجميع ما نتداوله اليوم فكريا وحياتيا يجيئ من الغرب.

ويبين أدونيس ذلك قائلا : (.... فليس عندنا ما نحسن به حياتنا إلا ما نأخذه من الغرب وكما أننا نعيش بوسائل ابتكرها الغرب، فإننا نفكر بلغة الغرب نظريات ومفهومات ومناهج تفكير ومذاهب أدبية ..).

نطرح هنا السؤال التالي على لسان أدونيس: "كيف نواجه في ضوء هذا كله مشكلة الحداثة في المجتمع العربي"، ثم يتلوه بالسؤال التالي: "ما الشيء المميز لنا كخصوصية مميزة". ليجيب نفسه بنفسه (الدين والشعر) وحتى الدين والشعر لابد أن نتساءل حولهما أي دين وأي شعر؟ فيرى أدونيس أن نواجه هذه المشكلة مقررا الآتي:

"... الفكر العربي لن يكون له أي تأثير أو فاعلية بل لن يكون له أية قيمة إلا إذا بدأ من مجابهة هذه المشكلة ء ومن داخل الثقافة العربية او الحضارة العربية ذاتها".

كيف نتصدى لصدمة الحداثة إذن؟ .

هكذا يبدأ أدونيس معالجة هذه المشكلة ليهتدي لهذا الجواب، أن نعرف ما كنا وما نحن من أجل أن نعرف ما نكون ؟ وبما أن المعرفة في نظره بمعنى" ما النقد ؟".

ففي هذا الإطار يتحدد دور المبدع فكريا، فكرا وفنا أي الشخص القادر وحده على تغيير كل تلك المفاهيم القديمة ليخلق لنفسه ولمجتمعه طريقة إبداع خاصة به وملهمة لهم وليستغني عن ثنائية (غرب/عرب) (النبوة/تقنية) «ولنعلم أنها لا تشكل ثنائية جدلية وإنما ثنائية تفاضل مما أدى إلى أن يدور الفكر العربي ولا سيما الشعر، منه في إطار مغلق وضيق ثم يعود بنا أدونيس إلى حداثة أبي نواس وأبي تمام مرة اخرى، ليبدي لنا بعض دفاعه في البداية، لكنه لا يلبث أن يدرك أن هذا التحول لم يأخذ نتائجه وأبعاده في المجتمع العربي كما ينبغي من جهة الحداثة وهنا تكمن الأزمة، المأزق لا بالنسبة إلى الحداثة فحسب، بل بالنسبة للشخصية العربية أيضا.

خاتمة:

إذا حاولنا أن نقدم نتائج موجزة حول هذا المؤلف يمكننا بصفة عامة أن نوجزها فيما يلي:

- علينا أن نعترف أن الحداثة غربية النشأة والتطور، والعرب مقلدون في بابها بما في ذلك تنظيرات أدوبيس إذ لا يخفى تأثره بالثقافات الأوربية غير أننا يجب أن ننوه بالحداثة العربية التي مثلها أبو تمام وأبو الطيب المتنبي وأبو نواس وهي حقيقة بالمنصب الريادي.

- من أجل الحكم على حداثية شاعر ما اقترح أدونيس ثلاثة أسس كفيلة بهذا :

1/ مستوى الرؤية

2/ مستوى بنية التعبير

3/ مستوى اللغة الشعرية

- فهذه المستويات الثلاث أصبحت قانونا يفرض على الشاعر الحداثي أن يقدم رؤيا جديدة للعالم الذي يعيش فيه فليس هناك حسب أدونيس غربي متفوق أو عربي متأخر إنما هناك إنسان حدث له في ظروف معينة أن يتقدم أو يتأخر فالتقدم في نظره ليس مسالة غربية كذلك التخلف ليس مسألة شرقية .

- إن مشروع (الكتابة الجديدة) آخر نقطة توصلت اليها الحداثة العربية تحت لواء أدونيس.

-تكمن صدمة الحداثة في تخلف العالم العربي عن أوروبا وخضوعه لهيمنتها منذ عصر النهضة ماديا وفكريا لا يمكن إعطاء تعريف جامع مانع للحداثة إذ ستبقى متجددة بتعدد القراءات واختلافها عبر الأزمنة كلها مادامت فلوتة عصية على أي تعريف أو تحديد متمتعة بلا نهائيتها لكن لا احد ينكر هذه الحقيقة في شأنها : سيظل القلق سيدا والسؤال صاحبا على رأي الدكتور بنيس.

الهوامـــش والمراجـــع

1- عبد العزيز المقالح: ازمة القصيدة العربية، مشروع تساؤل، دار الأدب، بيروت 1995، ط1 ،ص .33.

2- د. عدنان حسين قاسم : الابداع ومصادره الثقافية عند ادونيس، الدار العربية 2000، ط2 ،ص .11

3- ادونيس –علي احمد سعيد : الاصول، دار العودة، لبنان، 1983،ط 4، ص .07

4- نبيل سليمان: مساهمة في النقد الادبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ط1 ، ص 32.

*رغم هذا إلا أن المتتبع للحركة النقدية التي جاء بها " ادونيس" يقف عند حقيقة تتراوح بين الاخذ بالتراث والتواصل معه، وبين هدمه والقطيعة معه فكثيرا ما نجده يستخدم الأسلوب الاستشراقي لذلك نتساءل مع الدكتور نبيل سليمان ولو الى حين " هناك روحا استشراقيا تقليدي معين ، أتراه كان بعيدا عن مشروع " ادونيس" رغم توكيده السابق ؟ ! انظر : نبيل سليمان : مساهمة في النقد الادبي ، ص .32

5- ادونيس، علي احمد سعيد: صدمة الحداثة، دارالعودة، بيروت، 1983، ط4، (المقدمة).

6- جبور عبد النور: المعجم الادبي، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ط2،ص.20

7- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث، بنياته وابدالاتها، مساءلة الحداثة، دار توبقال للنشر، المغرب ، 1991 ،ط1 ،ص 44.

8- ادونيس، علي احمد سعيد : الاصول، ص 35.

9- ادونيس، علي احمد سعيد : الاصول، ص 2.

10-د. بشير تاوريريت : استراتيجية الشعرية والرؤيا الشعرية عند ادونيس – دراسة في المنطلقات والأصول والمفاهيم، مكتبة اقرأ، قسنطينة، دار الفجر للطباعة والنشر، 2006، (د،ط)، ص 15.

11-أدونيس، علي احمد سعيد : زمن الشعر، دار العودة ، بيروت ، 1978 ، ط1، ص 127.

** حاولنا إعطاء تقسيم جديد لموضوعات الكتاب – اجتهادا منا – نظرا للتشابه والتداخل بينها دون أن نخل بأي منها.

12- ادونيس : مقدمة للشعر العربي – دار العودة ، بيروت ، 1981، ط1 ، ص.125

13-ادونيس : صدمة الحداثة ، ص .09

14-المرجع نفسه ،ص .10

15-د. علي قاسم محمد الخرابشة: جدلية التراث بين صلاح عبد الصبور وأدونيس --النظرية والتطبيق- ضمن مجلة " النص" ، مجلة علمية محكمة تصدر عن قسم اللغة والأدب العربي بجامعة جيجل ، الجزائر، العدد الثامن (مارس 2008) ص 15.

*** امثال : العقاد ، خليل مطران ، حسين هيكل ، الرافعي .

16-نبيل سليمان ، مساهمة في النقد الادبي ، ص .113

17-ادونيس: صدمة الحداثة ، ص .228

18- المرجع نفسه ، ص 233.

19- المرجع نفسه ، ص 236.

20-أبو الفرج الاصفهاني : الأغاني المجلد الثالث ، دار المعارف القاهرة (د.ط) (د.ت)،ص 254.

21- الآمدي : الموازنة، الجزء الأول، دار المعارف ، القاهرة ، 1961 (د.ط)، ص .18

22-محمد بنيس : مساءلة الحداثة ، ص .58

23-ادونيس ، صدمة الحداثة ، ص 301.

24- المرجع السابق، ص 309 .

25- المرجع السابق، ص 310 .

26-ا لمرجع السابق، ص 255.

27- المرجع السابق، ص .258

28- المرجع السابق، ص .358
29- المرجع السابق، ص 359
30-المرجع السابق ، ص 260.